البكاء والتباكي عند قراءة القرآن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فإنَّ دَمْعَ العينِ من خشيةِ الله عز وجل لأمرٌ عظيم، يُحَصِّلُ به المؤمنُ الأجرَ والثوابَ، ويزيدُ في النفس خشوعاً، ويزيدُ العبد من الله قرباً.

يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ويقول تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٨٣].

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} في النجاشي وأصحابه(١).

وعن عبد اللَّهِ بن الشخِّير ﷺ قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ»(٢).

وقصة بكائه لما سمع قراءة عبدالله بن مسعود ﷺ معلومة.

وقال النبي ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». متفق عليه.

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين، قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم تُهْرَاق في سبيل الله»(٤).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» متفق عليه.

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالُوا : وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ». رواه مسلم.

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَضْحَكُونَ، فقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ لَكَ: لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي؟ قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا»(٥).

قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر ﷺ: «املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»(٦).

ويتأكد البكاء وقت الفتن.

عن عبدالله بن عمرو ضي الله عنهما قال: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكر الفتنة فقال: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا– وشبك بين أصابعه–**»، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله تبارك وتعالى فداك؟ قال: «**الزم بيتك، وابك على نفسك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»(٧).

وينبغي لصاحب القرآن أن يكون من أهل البكاء من خشية الله، لا سيما عند قراءته لكتاب الله العزيز.

قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رحمه الله: «**يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِسَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ**»(٨).

وكان الصحابة ﷺ أهل علم وخشية وبكاء، والآثار في ذلك كثيرة منها:

ما هو معلوم عن أبي بكر الصديق ﷺ فقد كان رجلاً أسيفاً، كثير البكاء، لا يتمالك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن.

وكذا عمر ﷺ كان يبكي عن قراءة القرآن.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ رحمه الله قَالَ : «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»(٩).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ الْبَكَّاءَ، وَهُوَ يُصَلِّي، حَتَّى سَمِعْتُ خَنِينَهُ، مِنْ وَرَاءِ ثَلاثَةِ صُفُوفٍ»(١٠).

وقد وردت آثار سلفية في الحث على البكاء والتباكي خوفاً من الله، وفَرَقاً من عذابه، ورجاء لرحمته، ورغبة فيما عنده سبحانه.

عَنْ عَرْفَجَةَ السُّلَمِيِّ ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: «**ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا**»(١١).

وعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ ، قَالَ: جَلَسْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرَ حَدِيثًا، ثُمَّ قَالَ : «**ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَتَبَاكَوْا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ الْعِلْمَ لَصَرَخَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتُهُ، وَصَلَّى حَتَّى يَنْكَسِرَ صُلْبُهُ**»(١٢).

وفي لفظ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مِنَ الْعِلْمِ لَسَجَدْتُمْ حَتَّى تَنْقَصِفَ ظُهُورُكُمْ، وَلَصَرَخْتُمْ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُكُمْ، فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَتَبَاكُوا**»(١٣).

وعَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ ، قَالَ : أَتَيْتُ مَنْزِلَ ابْنِ عُمَرَ، فَإِذَا رَجُلٌ هُوَ آنِسٌ بِالدَّارِ مِنِّي فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ : عَجِبْتُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، رَأَيْتُهُ يَبْكِي، فَقَالَ: «**تَعْجَبُ مِنْ بُكَائِي، وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْقَمَرَ لَيَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَبْكِيَ فَلْيَبْكِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَتَبَاكَ**»(١٤).

وعَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ ، قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِالْبَصْرَةِ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ الدُّمُوعَ حَتَّى تَنْقَطِعَ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدِّمَاءَ حَتَّى لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ**»(١٥).

وقال أَبُو طَلْحَةَ الأسدي رحمه الله: قَدِمَ أَنَسٌ الْكُوفَةَ ، قَالَ: فَأَتَاهُ النَّاسُ، فَقَالُوا، حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَقُولُ: «إِلَيْكُمْ عَنِّي، أَيُّهَا النَّاسُ»، حَتَّى أَلْجَئُوهُ إِلَى حَائِطِ الْقَصْرِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا عَنِّي**»، فَانْصَرَفُوا (١٦).

فالنافع من البكاء والتباكي ما كان نابعاً من القلب. قال الحسن البصري رحمه الله: «**إن أقواما بكت أعينهم ولم تبك قلوبهم، فمن بكت عيناه فليبك قلبه**»(١٧).

الخاتمة

هَدْيُ النبي ﷺ في البكاء

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «وأما بكاؤه صلى الله عليه وسلم فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمُلا، ويُسمَع لصدره أزيزٌ.

وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية.

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»(١٨).

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض(١٩).

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} [النساء: ٤١](٢٠).

وبكى لما مات عثمان بن مظعون(٢١)، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك»(٢٢).

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته(٢٣)، وكان يبكي أحيانا في صلاة الليل(٢٤).

والبكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك.

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن، أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين، ولهذا يقال لما يفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلبا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب: «تبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها».

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي.

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت فهو بكى -مقصور- وما كان معه صوت فهو بكاء - ممدود - على بناء الأصوات.

وقال الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

وما كان منه مستدعى متكلفا فهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم.

فالمحمود أن يستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم أن يجتلب لأجل الخَلق، وقد قال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر: أخبرني ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، ولم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم»

وقد قال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا» انتهى كلام ابن القيم في زاد المعاد(١/١٨٣-١٨٦).

فنسأل الله قلوباً خاشعة، وأعيناً باكية من خشيته، ودعاءً مستجاباً، وعلماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وعملاً صالحاً متقبلاً.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد.

كتبه:

أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي

١١/ ٣/ ١٤٣٧ هـ

الحواشي والهوامش

(١) رواه النسائي في الكبرى، والبزار، والطبري في تفسيره، وابن أبي حاتم في تفسيره، والطبراني من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن ابن الزبير به . وإسناده صحيح.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٥)، وأبو داود(١/ ٢٣٨رقم٩٠٤)، والنسائي (٣/ ١٣رقم١٢١٤)، والحاكم(١/ ٣٩٦رقم٩٧١) وسنده صحيح. انظر: [صحيح الترغيب والترهيب: (١/ ١٣٠رقم٥٤٤)].

(٣) رواه الترمذي في سننه (٤/ ١٧٥رقم١٦٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وسنده حسن، وهو حديث صحيح بشواهده. انظر: [صحيح الترمذي:رقم١٦٣٩].

(٤) رواه الترمذي بإسناد حسن. [صحيح الترغيب والترهيب:١٣٧٦].

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه بسند صحيح، وأصله في الصحيحين بدون القصة.

(٦) رواه ابن المبارك في الزهد، والإمام أحمد في المسند(٥ / ٢٥٩)، والترمذي، وهو حديث صحيح بطرقه. [الصحيحة:٨٩٠].

(٧) رواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف، والإمام أحمد في المسند، وأبو داود، والنسائي بإسناد حسن. [الصحيحة:٢٠٥].

(٨) رواه ابن بشران في الأمالي(رقم١٢٥٥)، والبيهقي في المدخل(ص/٣٣٩رقم ٥٥٧) وغيرهما وهو أثر صحيح.

(٩) علقه البخاري في صحيحه، ورواه موصولاً عبدالرزاق في المصنف، وسعيد بن منصور في سننه، وابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر في الأوسط بسند صحيح.

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء بسند حسن.

(١١) رواه وكيع في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف، والإمام أحمد في الزهد (ص/١٠٨) وإسناده صحيح إلى عرفجة.

(١٢) رواه ابن المبارك في الزهد، والحاكم(٤/٦٢٢) بسند صحيح..

(١٣) رواه أبو داود في الزهد(ص/٢٥٦رقم٢٨٧) بسند صحيح.

(١٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق(٣١/ ٢٦٧) بسند حسن.

(١٥) رواه ابن سعد في الطبقات، والإمام أحمد في الزهد، وأبو نعيم(٢٦١/١) بسند صحيح.

(١٦) رواه أبو يعلى بسند حسن.

(١٧) رواه ابن أبي شيبة(٧/ ١٨٩رقم٣٥٢١٥) بسند حسن.

(١٨) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس ﷺ.

(١٩) كذا ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله، والحديث المعروف في ذلك هو حضوره موت أحد أبناء بناته.

عَنْ أُسَامَةَ بن زيد رضي الله عنهما، قَالَ : «كَانَ ابْنٌ لِبَعْضِ بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْضِي، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهَا، فَأَرْسَلَ إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ، فَأَقْسَمَتْ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقُمْتُ مَعَهُ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا نَاوَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَقَلْقَلُ فِي صَدْرِهِ حَسِبْتُهُ، قَالَ : كَأَنَّهَا شَنَّةٌ ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : أَتَبْكِي؟، فَقَالَ : «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ» متفق عليه.

(٢٠) متفق عليه.

(٢١) رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم وفي إسناده عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف. انظر: [الإرواء:٦٩٣، الضعيفة:٦٠١٠]

(٢٢) رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، والنسائي، والترمذي في الشمائل، وغيرهم وسنده صحيح. انظر: [إرواء الغليل:٣٩٦].

(٢٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «شَهِدْنَا بِنْتًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ عَلَى الْقَبْرِ، قَالَ: فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ، قَالَ: فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُمْ رَجُلٌ لَمْ يُقَارِفْ اللَّيْلَةَ؟»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَنَا، قَالَ: «فَانْزِلْ»، قَالَ : فَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا. رواه البخاري في صحيحه.

(٢٤) عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقال عبد الله ابن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فبكت، وقالت: «قام ليلة من الليالي فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي، قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى. فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟ لقد نزل نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: (إن في خلق السموات والأرض) الآية». رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، وابن حبان في صحيحه، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ، وغيرهم وإسناده صحيح. وأصله في الصحيحين مختصراً. انظر: [الصحيحة:٦٨].